دير سميحة

قصة مصرية
بقلم الأستاذ محمد دياب خيري

— دائماً إلى مكتبك ؟

— أحاول أن أضع قصة

— قصة ؟ وما عساك أن تكتب فيها . لعلك وقعت على حياة بعض الناس ، فيها من الحوادث ما حبب إليك تسجيلها

— كلا ، فما أكتب إلا عن نفسي

وعند ذلك لم يتمالك صديقه نفسه من الضحك

— ولِمَ لا ؟ ألم يكتب جان جاك اعترافاته ، وكونبيه روايته « حياة » ، ودوديه « الشيء الصغير » ، ودوماس « ذات الكاميليا » ؟ إن الكتاب كثيراً ما يدونون حياتهم حتى في أدق أسرارها

— ولكن القصص لا يقبل عليها الناس إلا إذا غذاها الكاتب بالحوادث العنيفة ومواقف الحب المتقدة المقدة حتى تلهب المشاعر وتهز النفوس . وأنت يا صديقي لا يتخلل حياتك شيء من ذلك . وكل ما في الأمر أن أبويك خلفا لك هذه الثروة الطائلة التي تعيش عليها ، كما أنك أكثر الناس نفوراً من المرأة حتى إنك لا تفكر في زوجة تسكن نفسك إليها وتطرد بها وحشة العزلة التي أصبحت من بعدها فيها . لم لا تتزوج فيكون لك أولاد يروحون ويغدون أمام عينيك فيملأون دارك حركة وبشراً . إن الأولاد كالنور ، وإنهم لأولى بهذه الثروة من بعدك . على أنني إلى الآن لم أقف على سر كراهيتك للنساء وأنت بحمد الله في أوج الصحة ومقتبل العمر ؟

— ومن قال لك إني أكرههن ؟ ولكني لن أتزوج

— لن ؟

— نعم . ولقد حرصتُ دائماً أن أخفي عنك السبب الذي وقف بي عند هذا العزم . ولكني أذكره لك الآن حتى لا تمود عيناك تعذبانني بنظراتهما المتوسلة وأنت تحاول أن أكشف لك الغطاء عنه

كان أبي رحمه الله من كبار تجار الفاكهة بالاسكندرية ، فعزم مرة على زيارة جبل لبنان للاتفاق مع أحد ملاك البساتين فيه ليرسل إليه بكل ما تخرجه من الثمار . وكان من بين أغنياء الجبل رجل اسمه السيد محمد صلاح الدين شهاب يقيم في دير القمر الذي كان فيما مضى مقر الأمير شهاب المعروف . فكتب أبي له لينتظره

وبينما هو في طريق الجبل إليه داهمه على مقربة من دير القمر بعض قطاع الطرق فلما قاومهم طعنه أحدهم بمديته طعنة وقع على أثرها مغشياً عليه ثم فروا بعد أن سلبوه المال الذي حمله لتنفيذ ذلك الاتفاق

ولما طال انتظار السيد صلاح الدين عزم على ملاقاته بنفسه . ولكنه ما كاد يبتعد عن حدود القرية حتى لمح أبي ماثلاً على الحالة التي ذكرت ، فلم يشك في أنه هو وأسف على أنه لم يفكر في النزول إلى بيروت لمقابلته . على أنه كلف رجاله بحمله إلى داره . وكان الجرح من حسن الحظ غير غفير فالتأم في مدى شهر بفضل عناية الطبيب الذي استقدمه لمعالجته .

ومن ذلك العهد توثقت الصلة بينه وبين هذا

الرجل الكريم إلى أن مات وهو فى شرخ الشباب

— لعلة ؟

— كلا . وإنما أولع بعد انتهاء الحرب الكبرى كغيره باقتناء أوراق البنكنوت الألمانى . وقد استنفدت ثروته كلها وهو يعالل نفسه بالغنى الطائل فى يوم قريب حتى إذا انكشف الأمر وظهر له أن هذه الأوراق لا تساوى شيئاً قضى عليه الهم

— وأهل بيته ؟

— لم يكن له غير زوجه وابنته . وقد وقع نعيه فى نفس أبى أسوأ موقع فبكاه بكاء مراً وأسرع إلى لبنان ليعود بهما إلى مصر ، ولكنه لم يعثر عليهما لا فى دير القمر ولا فيما جاوره

— لعله ذلك الذى كانت صورته هنا إلى جانب صورة المرحوم أبيك ؟

— نعم هو ولكنها تثير داءً فى نفسى تلك الذكرى فأنزلتها . إنها الآن فى ركن فى غرفة نومي بل إننى حرمت على نفسى تناول الفاكهة أيضاً حتى لا أذكرهم جميعاً

— حقاً إنها الذكرى تصلح أساساً لقصة رائعة طريفة . ولكنى لا أجد فيها إلى الآن سبباً يباعد بينك وبين الزواج ... لعل تلك البنت ... ؟

— هى . هى يا صديقى . ومن الغريب أننى لم أرها ولاهى رأتنى ، إذ كانت فى القسم الداخلى بمدرسة عنطورة لاتزور أبويها إلا مرة كل أسبوع ، ولكنها على رواية أبى كانت أجمل فتيات دير القمر بل وقرى الجبل كلها . وقد تعاهد أبى وأبوها على أن تكون لى إحكاماً للصلة بين البيتين .

وعند ذلك ساد السكوت وأخذ كل منهما يسبح فى بحر قاتم من الخيالات . فيلمن الزائر تلك الأوراق التى جرت الحسرة والويل على كثير من الناس . ويلمن أولئك الطماعين القصيرى النظر وإلا كانوا يقتصرون إذا كان لا بد من المضاربة على جزء من أموالهم فلا يحيق بها كلها الخراب . وكان كامل افندى (صديقه) يذكر تلك الفتاة وحسنها الذى كان مضرب المثل فى الجبل حتى خيل اليه أن دير القمر لم يسم بهذا الاسم إلا لأنها كانت زينته

ثم يشعر بالمرارة وهو يتصور ما صادفها وأمها بعد موت عائلهما من غوائل الفقر والجوع والتشريد . وهكذا يحطمه اليأس وتتسابق فى عينه الدموع . ولم تكن هذه المرة هى الأولى التى صدعته فيها تلك الذكرى فانه ما كان يقبل على غرفته ويرى صورة أبيها حتى تتجدد ولذلك اضطر إلى رفعها . ولكنه كان يقول فى نفسه إذا كانت لم تمد بعد من سكان دير القمر فلم لا أقيم أنا لها فى قلبي ديراً آخر تترهب ذكراها فيه إلى أن تحين ساعتى . ولذلك وطن نفسه على عدم الزواج .

وكانت الساعة أخيراً تدق النصف بعد العاشرة ، ولكن أحداً منهما لم يشعر بها وهو فى شاغل من هذه المأساة لولا أن طرق الباب طرقاً عنيفاً فانتبها . وعند ذلك هرول صديقه مستأذناً كما رافقه كامل افندى إلى الباب ليرى من هذا الطارق .

ولما فتحه وجد أمامه أحد رجال البوليس وفتاة فى أسمال بالية مستندة إلى الحائط وبجانبها صرة يظهر أن بها ملابسها . وعند ذلك قال الجندى إنه رآها جالسة عند عتبة الباب تبكى وتقول إنها خادمة حضرتك ، ولكنى شككت لوجودها خارج البيت فى ساعة كهذه فطرقت الباب لأتأكد من صدقها

— نعم إنها خادمتى يا شاويش ... أشكرك

وعند ذلك انصرف صديقه وهو يعتقد أنها خادمة جديدة، وكذلك الجندي، ثم أغلق الباب. وكان وهو صاعد وهي من خلفه يسائل نفسه في ألم: لم تسرع في إيوائها؟ وكيف جاراها فيما ادعته وقد تكون هاربة بعد أن سرقت ما وصلت اليه يدها؟ ولكنه تذكر رواية رجل البوليس من أنها كانت تبكي وأن دموعها لا زالت تنحدر من عينيها في جزع وصمت؟ ثم لم لا تكون يائسة مضطهدة ففرت لهذا السبب. وعند ذلك تنفرج أساريره وتنبسط نفسه وما فعل شيئاً بجانب ما فعله صديق أبيه حين قصده في لبنان ودهمه قطاع الطرق.

ويظهر أن الفتاة أدركت من سكوت كامل افندي أنه نادم على ما اندفع إليه فقالت ياسيدي: إني لم أكن خادمة وما ما لولا موت أبي فاضطررت إلى الخدمة، ولكن اتضح أن الشاب الذي أرسلت إليه اليوم أغرب ويعيش وحده فما كاد يدخل الليل حتى أخذ يخاطبني بلهجة غير اللهجة التي يخاطب بها المخدوم الخادم، ثم أخذ شيئاً فشيئاً يقترب من غرضه حتى انكشف لي، فرفضت. ولكنه حاول أن يأخذني غصبا فقاومته حتى مزق ثوبي وجرح ساعدي. وأخيرا دفعته عني وفررت. وقد كذبت على رجل البوليس فلم يشأ أن يصدقني وطرق الباب. وعند ذلك اضطربت وبكيت خشية أن يفتضح أمري. على أن هذه الصرة بين يديك يمكنك أن تلقي نظرة على ما فيها.

— ولكن يا...

— سميحة ياسيدي

— ولكني ياسميحة أنا أيضا أغرب وأعيش هنا وحدي فكأنك ما فررت من النار إلا إلى النار أليس كذلك؟

وكانت الفتاة في خلال ذلك تنظر إليه من طرف خفي وقلبها مطمئن فصاحت:

مش كل الناس ياسيدي

وعند ذلك قال: لها إذن ستنامين هنا إلى الصباح. أتبعيني لأدلك على المكان الذي تقضين سواد هذه الليلة فيه. ثم أخذها إلى غرفة خادمته التي استأذنته في غياب ليلة فتأخرت ليلتين. وبعد ذلك عاد إلى غرفته لينام هو أيضا.

ولكنه كان مشدود الأعصاب مشتت الخاطر فلم تجد عيناه سبيلا إلى النوم وقد ذكر ما تعاني خطيبته وأمها أيضا بعد أن كشر لهما الحظ فأخذتا تضربان في بطن الأرض هائمتين في دنيا الهموم والأحزان.

وما كانت الفتاة كذلك ليطرق جفنيها النوم وهي تعلم أنها لن تنام تلك الساعات القليلة الباقية إلا لتفتح عينيها عند الصباح على جفوة الطريق وقسوة الناس ومرارة الفاقة وذل السؤال، ولذلك كانت تبكي وتقول: لو أن تلك الخادمة لا تعود فتحل محلها! إن هذا الشاب الكريم الذي أنقذها من موقفها مع رجل السلطة لن يتردد في استبقائها مكانها. ولذلك لم ينبثق نور الصباح حتى أخذت تكنس السلم وتنظف الغرف وترتب الأثاث، ثم استعانت بما وجدته في ثلاجة المطبخ من اللبن والشاي على إعداد طعام الإفطار، حتى إذا استيقظ كامل افندي دهش وسر فلم يتعرض لمسألة خروجها وأثنى عليها

ومن حسن الحظ أيضا أن الخادمة الأولى اعتذرت من عدم العودة بالزواج فأثلج ذلك صدر سميحة وأخذت تدبر كل شئون البيت بمفردها. وكانت

فى عملها تتوخى دائما السرعة والدقة وسلامة الذوق حتى إنه كان يجد ما على مكتبه منظما تنظيما غريبا وهو يرى الكتب العربية فى جانب والأفرنكية فى جانب آخر، والدواة والأقلام مغسولة براقة زاهية، وورقة النشاف المستعملة منزوعة

وكانت جريدة الأهرام تصل باستمرار فى صباح كل يوم فاشترت لها حالة من الخيزران على مثال ما يجده الناس فى المقاهى، وكانت تتلقاها فى مكان قريب من المائدة حتى إذا وقعت عينه عليها ساعة إفطاره تناولها بسهولة . وكانت بعد إطلاعه عليها تحفظ أعدادها فى مكان خاص فاعلة بطلب الرجوع إلى عدد منها .

وكان المطبخ فى عهد الخادمة السابقة قذرا مهملا فأخذت فى تنظيفه وترتيبه وتجديد كثير من الوسائل اللازمة له فأوصت النجار بعمل حامل يحفظ الأطباق بين قوائمه وأعدت كذلك مائدة كست سطحها بالزنك لتيسير غسل المواعين والآنية .

وكان سيدها لا يحاسبها على ما تأخذ كل صباح من المصاريف اليومية، فكان ما يزيد منها على الحاجة تشترى به ورقا أمريكيا للمرحاض أو طوابع بريد كانت تضعها على المكتب فى مكان ظاهر، كما أنها اشترت تقويما مما يعلق على الحائط كانت تنزع منه كل صباح ورقة اليوم المنصرم، وكذلك اشترت جرسا على شكل سلحفاة وضعته إلى جانب الدواة حتى لا يجهد سيدها نفسه بالنداء عليها

وكل ذلك أعدته ولم يمض عليها أسبوع من يوم التجائها إلى الدار مما أدهش كامل افندي وجعله يشعر بأنه لم يكن أمام فتاة عادية كان أول عهدها بالخدمة ذلك اليوم الذى فرت فيه

وكان لكامل افندى عمارات ضخمة فى بورسعيد أقام عليها وكيلا يحصل له ايجارها ويرسل به اليه كل شهر مع كتاب مطبوع فى رأسه اسم « دائرة كامل أفندى الزاهد ببور سعيد » فأراد كامل افندى أن يكتب له فى شأن مستعجل من شئون تلك العمارات ثم وضع الكتاب على المكتب وفى الصباح خرج بعد أن أوصاها بسرعة إيداعه صندوق البريد لأهميته . ولكنها وجدت الغلاف خلواً من العنوان فخطر لها أن تطلع على خطاب ذلك الوكيل وهكذا كتبته فوقه ثم أرسلته . غير أن الوكيل لما تسلمه لاحظ خلافاً بين خط الغلاف وخط سيده فخشى أن يكون من حمل الكتاب إلى مكتب البريد فتحه ليطلع على ما فيه ولذلك نبه سيده إلى ذلك مع إعادة ذلك الغلاف

أما كامل افندى فقد أدرك أنه نسى كتابة العنوان وأنه ليس هناك غير سميحة التى استكملت ذلك النقص حتى لا يفوت الغرض الذى قصده فأكبرها، وقد ظهر له أنها مثقفة تجيد القراءة والكتابة كما أنها فطنة ذكية تقدر ما يجب للقيام بتنفيذ مطالبه على الوجوه التى ترضيه وتتفق مع ما تتطلبه من العناية والسرعة .

نعم، إنه لما سألها عما إذا كانت تعرف القراءة والكتابة أنكرت وقد صبغ خديها الخجل، ولكنه لم يناقشها إذ قد تكون ظنت أنها تصرفت فى أمر الغلاف تصرفاً غير لائق أو أنها لتواضعها تنفر من مظاهر الاعتزاز والكبرياء

ومرة أخرى دخل عليها المطبخ فوجد بين يديها قصة الشاب الفقير لأوكتاف فولييه، فما إن رأته حتى نهضت مضطربة وطوت الكتاب بعد أن

وضعت عند الصحيفة التي كانت تقرأها عود ثقاب لتهتدي اليها ، فلما تناوله قال إنك تجيدين الفرنسية أيضاً يا سميحة، ولكنها أجابته سلباً وأنها فقط كانت تتسلى برؤية المناظر المصورة مع أن تلك الصحيفة كانت خالية منها

قضت هاتان الحادثتان وقضى نشاط سميحة ونضوج تفكيرها وقوة ملاحظتها مما ذكرناه على كل شك فى أنها من أسرة رفيعة لا بد أن الزمان وقف فى طريق سعادتها . وكان فى ذلك اليوم قد قصد إلى البنك وقبض منه مبلغاً فناولها منه عشرة جنيهات قائلا خذى هذه يا سميحة واشترى به فوراً ملابس تليق بك فانى أريد أن أراك من اليوم فى غير هذه الأسمال .

وهكذا ما حان موعد طعام العشاء حتى كانت سميحة فى زيها الجديد آية من آيات الحسن والرشاقة وهى فى سن الرابعة والعشرين التى تكتمل عندها الأنوثة وتبرز اللاحة .

ولقد لفت نظره قرطاً فى أذنيها من ماس صناعى فأسرع إلى خزانته وأخرج منها قرطاً من ماس ثمين كانت تتحلى أمه به ، ثم شبكه فى أذنيها بيديه المرتجفتين بدلا من ذلك القرط الكاذب وجسمها ينتفض وأنفاسها العاطرة تتلاحق وعيناها الساحرتان تنظران إليه فى صمت أبلغ من الكلام كله شكر

وكانت المائدة حاضرة وقد زانتها بوعائين أطلت منهما مجموعتان من الورد الزاهي المختلف الألوان كما أن غرفة الطعام كان يضمرها نور ساطع قوى وقد ضاعفت عدد مصابيحها . وكان النور ينعكس على قرطها فتنبعث منه شرارات متألقة تتحرك بتحرك القرط فى أذنيها الجميلتين ، وقد ظهر وجهها الصبوح تحت شعرها الأسود اللامع بدراً فى ليل ، وعيناها النجلاوان وأنفها الدقيق وفمها الذى يطلب القبل . كل ذلك يبتسم فى جو يموج بأثير الشباب. وما كان هذا الوجه البديع إلا ثمرة شهية أطلت فوق غصن قدها المعتدل الناعم وقد زانه نهداها البارزان وبطنها الضامر وأعطافها اللينة وساقاها الجميلا التكوين مما يأخذ باللب ويغرى بالحب ، حتى أنه حين أخذ مجلسه من المائدة قال لها : من الآن يا سميحة نتناولين الطعام معى . اجلسى هنا أمامى فما أنت بخادمتى وإنما أنت سيدة بيتى . وكانت حيرى مترددة فألح عليها؛ حتى إذا انتهيا من الطعام أسرعت إلى المطبخ وعادت تحمل طبقاً واسعاً من الصينى به قرص شهى من التورتة ظن أنها اشترته من أحد حوانيت الحلوى . ولكن كم كانت دهشته لما علم أنه من صنع يديها ، وأنها اشترت مما تقتصده قرناً صغيراً لهذا الغرض وغيره. وأخيراً عادت إلى المطبخ، فلما طال غيابها خف خلفها ببطء فرآها تبكى . وعند ذلك عاد دون أن تلمحه وهو يسائل نفسه من عساها أن تكون هذه الفتاة ؟

* * *

وكان من عناية كامل افندى بسميحة أن أفرد غرفة خاصة لزينتها كما أعد لها سريراً فخماً فى الغرفة المجاورة لغرفة نومه . وكان إذا خرج اصطحبها فى سيارته التى كان يقودها بنفسه ، وكانت تتولى هى قيادتها أيضاً فى بعض الأحيان . أما إذا عاد فى

الليل من رياضتهما فكانا يشتركان فى الحديث والمطالعة

أصبحت سميحة الشغل الشاغل لكامل افندى لا يفتأ يفكر فيها ويعجب بمحاسنها وينمره السرور عند كل حركة من حركاتها حتى كادت تنسيه تلك التى أرادها له أبوها وأبوه، وقد أخذت سميحة تنزل رويداً رويداً إلى أعماق ذلك الدير الذى أقامه فى فؤاده لتلك الذكرى

وفى ليلة من ليالى القمر قضياها فى طريق السويس عادا إلى الدار وقد تملكه حبها ولم يعد يستطيع صبراً عليها فأخذ يداعب شعرها ويتلطف معها ويسائلها من أنت أيها الملاك الذى هبط على من سماء وحشتى ؟ أو لا أعرف على الأقل من أنت ومن أبوك ومن أمك وما هى أحداث القدر التى حاربتهما وحاربتك ؟ تكلمى . إشفى غليلى فانك لم تعودى الآن إلاجزءاً منى بعد أن تلاشت روحك فى روحى وامتزجت نفسك بنفسى . ولكنها ظلت تنمره بنظرات فاترة ضالة وقد عجم لسانها الصمت وغلبها الحياء. وأخيراً قالت له : ماذا يهمك من أمرى ومن أمر أبوىّ . بالله عليك أن تترفق بى ولا ترجعنى إلى ذلك الماضى الذى أحاول نسيانه لأنه لم يثمر غير شقائى ...

— إن من واجبى إذن أن أحول بينك وبين هذا الشقاء

— هيهات

ولكنه أمسك بكفيها وقال متململاً وهو يحدق فيها :

— إننى أحبك يا سميحة

وعند ذلك عادت إلى حلمها ونظراتها الشاردة تسبح فى فضاء الغرفة كأنها تفتش فيه عن شىء مفقود

— أو كثير عليك أن تقابلى هذا الحب بمثله ؟

— إننى لا أنكر ما لك على من الجميل ياسيدى. ولكن فى هذا القبر (مشيرة إلى قلبها) شبحاً دفيناً يغوص فى تراب الذكريات البعيدة ، فبالله عليك لا تحاول أن تثيرها فإنك لا تعلم مبلغ ما تجدده لى من العذاب

— إذن أنت تحبين يا سميحة ؟

— .....

— قوليها كلمة صريحة وإن كان عذابى فيها فانى بقدر ما أحببتك وأكرمتك أكرم أيضاً هذه الصراحة فيك

— ... نعم

— نعم : إن من الكلمات القليلة الحروف ما يحقق سعادة أو يحطم حياة ... ولكن من عساه أن يكون هذا السعيد ؟ من هو وأين هو ؟

— إنى أجهله يا سيدي ...

أنت أيضاً ! أنت أيضاً تجهلين مكانه كما جهلت أنا مكانها . والحظ الذي يجمعنى بك ويملأ نفسى منك هو الذى يهدم الآن سعادتى ويباعد بينك وبينى . ولكنك على كل حال أكبر منى نفساً وأكثر وفاء ، فأنت لا تزالين على عهده أمينة وفية بينما أنا الشقى أسدل الآن ستاراً على عهدها وأنساها

وعند ذلك أفلت كفيها من يديه وارتمى على مقعده خاراً ذليلا . أما هى فمقدت ساعديها حول

رأسها وأخذت تبكى . وأخيراً قالت له فى رفق وخشوع : إن لى عندك حاجة يا سيدى لعلك لا تخيب رجائى فيها

— وما هى ؟

— أن تأذن لى بالذهاب عن هذه الدار حتى لا يطول عذابك ... وعذابى

— ماذا ؟ وهل جهلت يا سميحة أن بعدك عنى الآن يضاعف هذا العذاب وربما قتلنى . بل تبقين إلى جانبى حتى تهتدى إليه فأجمع بينكما وتعيشان سعيدين .

— وأنت ؟

— وأنا أعيش فى ظل هذه السعادة صديقاً وفيا

كم كان موقفه معها فى هذه اللحظة القاتلة نبيلاً . وكم كانت هى أيضاً تحبه وتتهالك عليه وهو جميل رشيق شجاع عادل ، لولا ذلك العهد ، وكان قد غلبه النوم فأيقظته فى رفق لينتقل إلى سريره ويرتاح .

ولكنه لم يلبث أن شعر برأسه يدور وجسمه ينحل ويتفكك وقد ثقلت أطرافه وزادت حرارته فعكفت على تمريضه . وأغلقت النافذة التى بجواره منعاً لمرور التيار . ولكنها فتحت النافذة الأخرى البعيدة عنه حتى يتجدد دائماً هواء الغرفة ثم ناولته قرص اسپرين كما أعطته ملينا فقد يكون الصداع الذى يشعر به بسبب سوء هضم أصابه . وكانت بين فترة وأخرى تختبر حرارته بترمومتر أسرعت فى شرائه . وقد لاحظت أن حرارته ترتفع شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغت ٣٩ درجة وخطين انزعجت وأسرعت إلى دفتر التلفون لتستدعى فى الحال طبيباً

وبينما هى تنتظر عودته وهى على أحر من الجمر كان هو يهذى فى نومه فيذكر أبويه ويذكر اسمها والجبل ودير القمر وساعداه يمتدان فى الفضاء كأنه يناجى ويتوسل . وعند ذلك ذهب بها الظن إلى أنه كان على نية السفر إلى هذه الربوع لأنها وجدت دليل المصيف من بين الأوراق التى على مكتبه

وعند ذلك سمعت حركة سيارة تقف عند الباب وما كان الطارق غير الطبيب فأسرعت به إليه ولكنه كان نائماً فرأى ألا يوقظه واختلى بها فى غرفتها يستفسر منها عن يوم إصابته وعن أعراضها وعن الاجراءات التى اتخذتها فى تلك الأيام الخمسة التى مرت عليه وهو فى تلك الحالة . وكم أعجب الطبيب بكل ما فعلته ولاسيما بالبيان الذى حرصت على أن ترصد فيه درجة حرارته فى خلالها . وكان كامل قد استيقظ لأنه ناداها عليها فأسرعا نحوه وقد دهش لعنايتها به إلى هذا الحد

وبعد أن فحصه الطبيب لم يجد به أثراً لأية علة فقلبه سليم ومعدته طاهرة من العفونة إلا حمى رفعت حرارته إلى ٣٩ درجة ونصف لم يكن سببها برد تعرض له . وعند ذلك لم ير إلا أنه وقع تحت تأثير سيء وصدمة شديدة لم يتحملها ، فشرح كل ذلك لها قائلاً : إن الجسم كما يتسمم من سوء الغذاء والشراب ، يتسمم كذلك من اضطراب الفكر بسبب حادث مفاجئ أزعجه . فهل مر به شيء من ذلك أو هو على الأقل تسكدر لسبب من الأسباب ؟ وعند ذلك التفت كامل إليها والتفتت إليه ثم سكتا .

فأدرك الطبيب أنه لم يخلص فيما انتهى إليه بحثه . ولذلك أوصاه بالحذر من الوقوع مرة أخرى تحت سلطان مثل هـذه المفاجآت ثم قال له : إنك على ما أرى دقيق الحس إلى حد أن أقل اضطراب يؤثر فى أعصابك ثم فى جسمك. سأكتب لك الآن عن دواء يشفيك من هذه الحمى فتعود حالتك إلى طبيعتها الأولى . وربما كان من حسن حظك أن هذه السيدة الفطنة إلى جانبك ، فهل هى ممرضة ؟

وعند ذلك قال المريض: نعم يا دكتور مع تغيير فى شكل بعض الحروف، فلم يفهم غرضه ، ولكنها فهمته هي ، وقد أراد بذلك سكون الميم الثانية مع كسر الراء ، ولذلك لم تستطع أن تحبس دمعها

— هلا ترى يا دكتور أن يذهب إلى الجبل لقضاء فصل الصيف فيه ؟ ...

— نعم . نعم . ولكن بعد أن يجدد قواه

ثم انصرف

أما كامل فقد أدهشته هذه الاشارة ولكنه حملها على هذيانه فى نومه بعد أن ذكرت ذلك له ، ثم قال لها:

أوعَيْتِ ما ذكره الطبيب يا سميحة من أننى أكون سعيداً إلى جانبك على شرط أن أحذر مثل تلك الصدمة ... ولكن ثقى بأنها لن تعود ، وأننى سأطيب وسوف لا أخون العهد الذى قطعته لك . سأعيش يا سميحة إلى جانبكما كما وعدتك فحسبي بعد ذلك من هذه الدنيا أن أراك سعيدة . وعند ذلك لمحت شبح الخطر يتمثل لعينيها لأن تلك الصدمة لن تلبث أن تدهمه مرة أخرى وهى تعلم مبلغ ما فعل حبه لها فيه . ولذلك أخذت توازن بين بقائها على عهدها نحو ذلك الغائب الذى لا أمل في عودته وبين أن تهوى بقبلتها على جبين هذا الذي أحبها وأكرمها ويريد أن يضحى بسعادته ويعيش معذباً فى سبيل سعادتها. ولكن دافعاً خفياً كان، كلما همت إلى تنفيذ عزمها ، يستوقفها

وقد خطر لها أن تنقل إلى ذلك الركن الخالى المقابل لسريره منضدة فى غرفتها حتى تكون على مقربة منه فيمكنها القيام عليه . ولذلك حملت تلك الصورة لتنقلها إلى مكان آخر وكان التراب قد علاها وهتك غلافها فنزعته عنها . ولكنها وقفت ذاهلة مسمرة فى مكانها وهي لا تصدق عينيها ، إنها صورة أبيها وهـذا خطه فى ذيلها حين أهداها إلى صديقه تاجر الفاكهة فما الذى انتقل بها إلى هـذه الدار ، لعله اشتراها من تركته ، ثم لـماذا يحرّم الفاكهة على نفسه مع أنها من خير ما ينفع الأجسام حتى أن الطبيب نفسه أشار بها

وعند ذلك اقتربت منـه وكانت حرارته قد انخفضت درجتين فتهلل وجهها ثم استأذنته فى أن تحضر له فاكهة كما أمر بذلك الطبيب، فقال لا بأس ما دام قد أشار بها ولكنها لن تكون كتلك التى كان يطعمنا إياها أبي ...

— أبوك ؟

— نعم . ألا تعلمين أنه كان من أكبر التجار فيها

— ولمَ لم تقل لى من قبل يا كامل ؟ الآن أبشرك بأننى قد اهتديت إلى مكان تلك التى أرادها لك

— أنت ؟

— نعم ... أنا . وسوف لا تعود إليك بعد الآن تلك الصدمة التي كنت أنا السبب فيها . سوف تجتمعان فلا تحنث في عهدك الذي ربطك به أبوك كما تكون خير عون لي مع احترام عهدي فلا يضيرك بعدئذ أن أتزوج أنا أيضاً به

— به ؟

إنه في تلك اللحظة شعر بسلطان حبها عليه بعد أن نسي الأخرى . ولكنها لم تمهله فطوقت رأسه بساعدها وحدقت بعينيها في عينيه قائلة: إنها أنا يا كامل وهذا شاهد على ذلك من أهلي ... أبي

ثم طبعت على ثغره الملتهب تلك القبلة الحارة التي طالما اشتهاها وطالما حبستها

* * *

ما كاد كامل أفندي يتماثل للشفاء حتى أرسل إلى وكيله بكتاب طويل ولكن الرد عليه لم يصله إلا بعد عشرين يوما تقريباً . وقد جاءه من لبنان مما يدل على أنه كان قد كلمه بالقيام إليها . وعند ذلك كاشف سميحة وأمها بعزمه على القيام معها فورا إلى الجبل ، إلا أن هذه الرغبة لم تصادف هوى في فؤادهما ، وقد غلبت عليهما ذكرى دارهما التي ألفاها ونشأت سميحة فيها وقد خرجت من أيديهما . ولكنهما مع ذلك رضختا والطبيب هو الذي أشار بذلك .

ولما وصلوا إلى دير القمر قصد بهما أولا إلى قبر عائلتهما لزيارته ثم عاد بهما وقد ظنتا أنهم سينزلون في خان بالقرية حتى أنهما لما مرت بهم العربة أمام الدار حولتا عيونهما عنها وقد اغرورقت بالدموع .

ولكن كم كانت دهشتهما عندما رأتا العربة تقف بهم عند بابها

لعله إذن سعى عند مالكها في أن يأذن بزيارتها أيضا قبل الانتقال إلى ذلك الخان . وكانت الدار على عهدها السابق إلا أنها أصبحت أزهى لما تناولها من التعمير والتجديد . وكان أثاثها جديداً فخما وكان كل شيء فيها مستكملا مرتبا أحسن ترتيب . فأخذتا تطوفان في غرفها ومسالكها وكأنهما في صمتهما تتخاطبان : هنا كنا نأكل ، وهنا كنا ننام ، وهنا كان — رحمه الله — يجلس ، وهنا كان يستقبل أصدقاءه من التجار ، ولكنهما كانتا تشعران بالألم والمرارة وهما لا تلبثان أن تبرحاها حتى إذا همتا بالنزول أوقفهما كامل افندي قائلا : إلى أين ؟ إنها كانت داركما وهي الآن كذلك . لقد سبق أن اشتريتها ثم كلفت وكيلي بتعميرها وتأثيثها حتى لا تنزلا في سواها ...

ومن محاسن الصدف أن صديقه لما علم بسفره إلى لبنان أدرك أنه قصد إلى دير القمر العزيز عليه فوافاه إليه . وكم كان سروره لما علم بكل ما ذكرناه هنا حتى قال له : الآن قد استوفيت عناصر قصتك فأي عنوان ترى أنه يليق بها فقال كامل افندي : لا أدري للآن

— سمها دير القمر

— أو دير سميحة

محمود خيرت